ندوب في الذاكرة

(بغديدا.. مدينة الجرح والنزف)

د. يوسف جرجيس

بغديدا: كالجرس اسمها يرن، دقاته في النفس اعذب من دقات ساعة لندن الشهيرة، عذب كأنساق الموسيقى المنبعثة من نواقيس الكنائس. فهذه البلدة التي باركها الله حينما خلقها، ليجعلها بعد ان قبّلها كأجمل الفراديس. اسمها: كالتفاحة حينما تشطرها شطرين: الاول يفاجئك بسرعة، يدخل اعماقكَ بقوة وعنفوان، يذكرك بان اهلها الاوائل، قد صاغوه كما تصاغ المجوهرات. مقطعها الثاني يتسلل الى الشغاف، بخفة وليونة وانوثة، ليشير في النفس والمخيلة شيئاً ما. انه بالنسبة لنا نحن السريان، كالاسماء الرومانسية كاسماء الخمور الشهيرة، كاسماء النساء الفاتنات، يضفي على المسامع مزيجاً من هذا وذاك، يجمع بين خصال الرجال والنساء، لتغدو عزيزة قوية رقيقة وادعة. يظهر عليها الضجر مما حولها على مر التاريخ، لتنمو فيها شراهة نحو الرغبات الانسانية في الخير والمحبة والسلام، انها صخرة باقية من صخور السريان، التي كانت تعج بها الارض بما رحبت، ثم تآكلتها الدهور والازمان. هي بالنسبة الى اهلها كلندن وباريس وبروكسل، الا ان هذه المدن لم تعد لاهلها الاصليين، بفضل العولمة ونظم العالم الجديد. انها تمتلك مواهب الخلق والابداع، وهي المثابة التي تتشكل عندها الغرائز والاحاسيس. لذا نراها تصرخ حتى في بأسها، إنها كبابل البهية. لقد جُعلنا من ابنائها، من سلالة الساكنين فيها، من ذلك الصلصال الذي باركه الله ومزجه بدمائها الاشورية والارامية القديمة، ليصوغ منها شعبها السرياني.

❖ في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، بين روعتها في السكينة والوداعة وبين ضجيج تاريخها، ولدنا في قصبتها القديمة، عشنا فيها العمر كله نتلفت شمالا فنرى كنيستيها الطاهرتين، نتلفت الى جهاتها الاخرى فنرى كنائسها الستة الاخرى. لقد كان فارق العمر بيننا وبينها 5000 سنة. نشأت رديفا وصنوا لعواصم الاشوريين التي شيدها من ذلك الصلصال الذي باركه الله ومزجه بدم اهلها فاصبحت منذ ذلك اليوم مدينة مقدسة. كما كانت المدينة تنمو وكنا ننمو معها، في تلك البقعة المقدسة، التي مدت جذورها الى اعماق التاريخ، كنا ننشا معها ونحن ابناءها، متاهلين في الانتماء الى حضارتها المبنية على التعايش والخير والسلام، لقد كان الانتماء اليها يشعرك بالحبور، كيف لا فالتاريخ لم يسجل على اهلها السريان أي اعتداء على حياة او وجود. فمنذ ان سقطت نينوى واشور وكلخو ودور شروكين سنة612 ق.م. سقطت بغديدا، منذ ذلك التاريخ ترك اهلها التنزه واصطياد الاسود الكاسرة، منذ ذلك التاريخ وجرحها ينزف دما والما وحسرة وحيرة ووقاراً.

❖ لا يمكن ان نتصور مدى الخراب الذي لحق بها، بتعاقب العصور والقرون الثقيلة، التي دفعتها الى عالم الضياع في النفوس والارواح. لقد تطاول عليها الظلم والاستلاب والقهر، فتولد جراء ذلك جرح عميق مستديم، وغدا ذلك الجرح قوة راسخة تنتقل من جيل الى جيل، ثم تحول الجرح الى شعور واحساس يسري في تضاعيف الحياة وتجاويف القلوب، حاملا باخلاص الحب الدائم لوجودها وعبء الذكرى بغير دموع واحزان.

❖ في التاريخ قلما انصرم قرن، دون ان تتعرض الى كثير من الغزوات والحروب،

واشكال أخرى من القهر والاستلاب، منذ ان وطئتها اقدام الميديين القادمين من جهة الشمال، ثم الفرثيين والساسانيين الذين حاولوا تخديش اسمها، ثم اقدام الاغريق والرومان. ثم العرب المسلمين فكانت جيوشهم تجول في اطرافها باشكالهم المختلفة المتعددة.

في عهد ابي جعفر المنصور ولّي موسى بن مصعب على الموصل سنة 769م "وكان شريرا باغياً لم يقم والي اخر بمثل قسوته فضايق الناس ضيقا شديداً لم يُرَ مثله منذ خلق الله فاطلق عليه اسم الشيطان" وكان اهل بغديدا جزءاً من ذلك النسيج الذي عاش فيه مثل اولئك الشياطين الذين لجاوا الى اقسى الاجراءات التي اتخذها والي في بلاد ما بين النهرين لوشم سكان القرى "فكان الوشم لا يمحى اثره مدى الحياة فيختمون الرجل في جبهته وعلى يديه وصدره وظهرهِ". التاريخ الزوقنيني ص121.

كان الاهل يُعصرون عصراً لاستخراج اخر درهم من جيوبهم حينما كانت تجمع الضرائب والعشور وجزية الرؤوس ورشاوي الحكام. فضاق اهل الموصل ذرعاً بولاة العباسيين وقوادهم الذين اساؤا السيرة وارتكبوا الاعمال المنكرة وشددوا في المطالبات ومصادرة الاموال وتجاهروا بالفسوق وفعل المنكرات واساءة السيرة "ابن الاثير الكامل 269/7". وسار على هذا النهج امراء السلاجقة والزنكيين فحولوا ابناء البلاد الى اقنان واشباه عبيد ثم كان كابوس الاحتلال المغولي والقرة قوينلو والاق قوينلو والعثماني، كابوسا ثقيلا طويلا على اهلنا في كل مكان. فهؤلاء القادمين من اعماق اسيا، كانوا يغتصبون وينهبون ويصدّرون فرماناتهم بغير وجه حق كالعزمان وهب فيه السلطان العثماني محمود خان، بغديدا لوالي الموصل حسين باشا الجليلي، عربونا لدفاع اهلها عن البلاد ضد نادر شاه سنة 1742م، عربوناً لدفاعها عن وجودها منذ فجر التاريخ، ضد كل انواع الظلم والعبودية والقهر والاحتلال. لقد حدث كل ذلك في تاريخها، ولكنها خرجت منه منتصرة بنعمة ايمانها وسيرتها النظيفة، وهذا هو سبب تميّزها، مع كل ما حمل لها من عذاب ومعاناة.

❖ من يقرأ تاريخها، يرى فيه كل تصدعات التاريخ في بلاد ما بين النهرين، هي بلدة يصعب ان تراها تبرأ من عللها، انها جرح

مفتوح، فعلى الرغم من صغرها فانه يخيل لي ان كل الازمات الرئيسة في العالم، تلقي بظلالها عليها، ومع ذلك فانها قهرت الظلام بسلام المسيح. لهذا فانها لن تموت، لن تحتضر، على الرغم من عللها والبثور الظاهرة في جسدها. بغديدا مدينة الجرح وعاصمة الوجع والالم، فيها ما يدل على ان الجرح ما زال مفتوحاً. انها لن تموت او تتعفن، على الرغم من ازمنة القهر والعدوان والظلم، الذي حطم في قساوته ذاكرة اهلها، حتى لم يعد بامكانهم معرفة انفسهم واصولهم، او تمييز منحدراتهم العرقية والقومية. أأشوريون هم ام اراميون ام انهم عدنانيون وقحطانيون من نسل تغلب واياد ونمير غسان وعبادة. لم يعد بامكانهم معرفة ذلك على الرغم من انهم مزيج من الاصالة والعراقة والعنفوان ومن السريان. المجرمون على مدى التاريخ في كل مكان حطموا البهاء، جعلوا المساكن دون ارواح تبكي بعيون حزينة

وغروب دائم، لقد شوهوا الذات في كل شئ: الحياة، الوطن،الحب، الشرف، الايمان، الوفاء، الكبرياء. لم يكن في بغديدا حائط او سياج كالذي كان في برلين لكنك كنت تجد في بلداتنا اكثر من حائط او سياج عبر التاريخ يفصل بين تطلعات الاهل وواقعهم. لقد عوّدهم الجرح والنزيف ان ينظروا الى بعضهم وبصمت، كانت نظراتهم فضاءاً تتلاشى عنده الذاكرة، ويضيع فيه الوعي، وتتمزق به الهوية، وينشطر من خلاله الذهن، وتنفصم عندهُ الشخصية. في كل لحظات السعادة كان يبددها الخوف والرغب، في بلاد لا يكون الانسان فيها بطلا الا بعد ان يموت فيصبح شهيداً. لقد كانت الشهادة في زمان القادسية جرحاً ونزيفاً اودى بحياة الكثيرين وخلف اوجاع لعقود طويلة وكان تاريخ بلداتنا كمعظم بلاد الشرق نفقا طويلا مظلماً يكتنفهُ الصمت وتحيط به الكوابيس اللعينة فبدت مدننا من خلالها مهزومة، هزمها التخلف، فأضاعت روحها واخفت بشاعة احتلالها القديم.حق علينا ان نحَجُّ اليها بأرواحنا. ان نَحُجَ الى كنائسها دائما بغديدة، لذا فلو لم تكن موجودة في حياتنا لسعينا الى ايجادها واختراعها. الان وبعد سقوط الاصنام لا يجوز الاستمرار في الرثاء والبكاء على الاطلال، بات علينا ان نعمل بنفس طويل وهمة عالية، كي تعود الينا بغديدا بكاملها ونعود اليها جميعنا. وهذا ما يجب ان نتعلمه من التاريخ.